أثر الغربة في شعر شوقي

بقلم

الدكتور عبد المنعم محمد يوسف

حياته قبل المنفى وظلالها فى شعره

(أحمـــد شـــوقى)

١٨٧٠ م — ١٩٣٢ م

ولد فى مدينة القاهرة بجهة الحنفى خرج إلى الوجود طفل يجمع بين السامى ، والآرى وينتهى نسبة كما يقول هو عن نفسه إلى العربية، والتركية، واليونانية ، والجركسية ، فانحدرت إليه هذه السمات عن آبائه وأمهاته ودرج إلى الحياة فى بيت موفور النعمة نازع إلى الاستقراطية الاجتماعية إذ كان بيتا مرعى الجانب محبوبا من ولاة السلطان منذ عهد محمد على الكبير وهذه الخطوة الأولى فى نشأة شوقى تبشر بنبوغ وامتياز فشوقى أمامنا مولد يرتد إلى عدة أجناس والمولدون يجمعون بين مواهب شتى من عدة شعوب فاذا تفاعلت كان فيها عبقرية فى أية ناحية واذا أردنا الاستشهاد لذلك فى تاريخ الشعر العربى وحده فانا واجدون أن (١) هؤلاء المولدين هم الذين حملوا لواء التجديد فى الشعر واخذوا على عاتقهم تحرير موضوعاته وأساليبه فكانوا معالم ممتازة فى تاريخه وانما أريد أمثال بشار بن برد وابى نواس وابن الرومى الذين أضافوا إلى الشعر العربى سمات طريقه فى الموضوعات والمعانى والأساليب لعل هذه السمات هى التى تلفت نظر مؤرخ الشعر العربى ولقد كان شوقى يحتل فى تاريخ الشعر الحديث منزلة تشبه منزلتى بشار وابى نواس فى تاريخ الشعر القديم من حيث أحياء الشعر وتحضيره والتجديد فيه وقد كلفته جدته لأمه واحبتـــه وحملته وهو فى الثالثة من عمره إلى

---

(١) يذهب إلى ذلك الرافعى ـ شعراء الوطنية نقلا عن التاريخ الثابت فى شهادة الليسانس التى نالها الفقيد من كلية الحقوق بباريس ـ ويتابعه الحوفى ـ فى وطنية شوقى ـ شوقى شاعر العصر الحديث ـ شوقى ضيف .

الخديوى اسماعيل وكان بصر هذا الطفل لاينزل عن السماء بسبب اختلال أعصابه فطلب الخديوى بدرة من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه فوقع الطفل أحمد شوقى على الذهب يجمعه ويلعب به وهنا قال الخديوى لجدته أصنعى معه مثل هذا فانه لايلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض قالت الجدة « هذا الدواء لايخرج إلا من صيدليتك ياموﻻى » قال جئينى به متى شئت ، أنى أخر من ينثر الذهب فى مصر ، وفى إجابة الجدة للخديوى اسماعيل ما يحمل أروع الدلالة على شاعرية خصبة كانت ممكنه فيها .

ويعنينا هنا أن نلاحظ هذه الارستقراطية التى يكرت إلى شوقى وهو فى المهد يلعب بالذهب هى التى طبعت أدبه فيما بعد بطابع أرستقراطى أرتفع به عن طبقات الشعب كما أرتفع هو بصياغته عن الشعر المهلهل السفساف .

وفى الرابعة عن عمره دخل مكتب الشيخ صالح حيث بدأ الدراسة والتعليم ثم انتقل إلى المدرسة الابتدائية فالثانوية واخيرا التحق بمدرسة الحقوق على صغر سنه ثم دخل مدرسة الترجمة وتخرج منها بعد سنتين وقد كان على عرش مصر إذ ذاك الخديوى محمد توفيق فالحقه بوظيفة بالمعية السنية فرح بها الشاب فرحا شديدا .

وهنا نقف قليلا لنلاحظ أن شاعرنا هذا قد رزق منذ نشأته قريحة وقادة وذكاء نادرا وتربية شريفة وثقافة نبيلة وأحاط بعلوم شتى ولغات عدة .

فكان واسع الثقافة والاطلاع رغيد العيش طويل الفراغ متصلا بالسياسة وخدمة الملوك متعلقا بالعرش المصرى والخلافة التركية الإسلامية والثقافة العربية الإسلامية سمع شعار البارودى الذى أعاد إلى الشعر العربى رونقه القديم فأعجب به وحاول أن يظفر بمنزلته فأقبل على كتب الأدب ودواوين الشعراء وابتدأ كما قال عن نفسه بديوان البهاء زهير الشاعر المصرى فاحتذاه ثم درس ابن مطروح وابن النبيه ثم فتن بفحول السابقين أمثال

أبي نواس والبحتري وابي تمام والمتنبي والمعري واخذ ينازعهم سلطانهم فأعجبه من أبي نواس خمرياته وغزلياته السابقة وحاكاها فقارب ورائه من البحتري حسن ديباجته واوصافه وتشبيهاته حتى لا يظن أن أكثر ما نراه لشوقي في وصف القصور والهياكل ومواكب الملوك مستمد منه أو محاكى به طريقته ولولا أنه سلك في الحكمة وارسال المثل مسلك أبي تمام والمتنبي لكان خريج البحتري وحده .

ومن غير شك كان يختلط أثناء ذلك ببعض العناصر الديمقراطية من الشعب ، ولكنه كان اختلاطا محدودا ، إذ كان لا يلبث أن يعود إلى بيئته الاستقراطية فتضعف من شأن هذه الديمقراطية المكتسبة وترده إلى أرستقراطيه الأصيلة(١) .

وواضح أنه أخذ في تعلمه الطريق المدني ولم يأخذ الطريق الديني ونحن نعرف أنه كان بمصر حينئذ نوعان من التعليم ، التعليم الديني الشرقي في الآزهر ، وكان خاصا بالتراث الإسلامي وكان متأثرا بالقرون الوسطى وصورة العلوم فيها من لغة وطب وفلسفة وغير ذلك وهي شاحبة ضئيله ، والتعليم الغربي في المدارس وهو تعليم يستمد من أوربا ومن كتب الآدب والعلم فيها ، وقد بدا في عصر محمد علي ثم خمد في عصر سعيد وعباس ، ثم عاد إلى النشاط والازدهار في عهد اسماعيل .

وفي هذا الاتجاه من التعليم المدني الأوربي سار شوقي وحينما أتم تعليمه الثانوي الحقه أبوه بمدرسة الحقوق ليدرس القانون ووصفه أحمد زكي حين دخل هذه المدرسة فقال « كان في جميلة الوافدين سنة ١٨٨٥ فتى نحيف هزيل ضئيل قصير القامة وسيم الطلعة تقريبا فتى يعبون متألقة ولكنها متنقلة كثيرا فإذا نظر إلى الأرض دقيقة واحدة فللسماء منه دقائق متمادية - وإذا

---

(١) شوقي شاعر العصر الحديث ص ١١ .

تلفت صوب اليمين فيما ذاك إلا لكى يرمى ببصره نحو الشمال وهو مع هذه الحركات المتتابعة المتنافرة هادىء ساكن وادع كأنما يتحدث نفسه إلى نفسه أو يتلاقى مع عالم الأرواح ما كان يلابسنا فما نأخذ فيه من اللهو والمزاح ، ولا تهافت معنا على تلقف الكرة بعد الفراغ من تناول الغداء ، أو حينما نتنفس الصعداء لانتهاء مواقيت الدراسة (١) .

والصورة التى رسمها أحمد زكى لشوقى توضح لنا معانى أخرى تتصل بشاعريته فهو يلاحظ أنه كان شعلة من الحركة المضطربة المتنافرة وهكذا هو شطحات بصرة ، أما بعد ذلك وفى أعماقه فهو ساكن وادع وهو مع هذا غافل عما يجرى مشغول بنفسه لا يلعب مع اللاعبين ولا يلقف الكرة مع اللاقفين .

هذه النشأة الأدبية الرسمية المبكرة انطقت شاعرنا بالشعر وهو طالب يدرس أولا ثم عينت اتجاه شعره وموضوعه الأول — ثانياً — فقدمدح الخديوى توفيق مرارا وهو فى المدرسة قبل أن يراه فلما اتصل بمعيته موظفاً بعثه إلى فرنسا سنة ١٨٨٧م ليدرس الآداب الفرنسية والحقوق وقد مكث هناك أربع سنين إلى سنة ١٨٩١ ثم عاد إلى مصر ولكنه لم ينس مولاه وهو يدرس فى فرنسا فأرسل إليه يهنئه بعيد الفطر ويشير إلى صلة أنفذها إليه توفيق باشا .

ونلاحظ من الناحية الفنية أن هذا الشعر بدائى تقليدى تعوزه القوة والبراعة .

عاش شوقى فى ظل توفيق نحو عشر سنين لا بد أنه قال شعراً كثيراً متصلا بالقصر أو خاصاً بحياة الشاعر وشبابه وبعضه فى الجزء الرابع من الديوان أو شىء منه فى سائر الأجزاء أو طى الكتمان لما ينشر للآن مع أنه أصدر ديوانه القديم سنة ١٩٠٠ فى عهد عباس الثانى مما يدل على أن شعر شوقى فى حاجة أشد إلى العناية بنشره من جديد .

---

(١) ذكرى الشاعرين (حافظ وشوقى) .

وأما عصر عباس الثانى وقد كان شاعرنا أثيراً لدى عباس وشاعره فكان أحفل العصور فى حياة شوقى بالحوادث والآثار الشاعرية وسبب ذلك تصادم التيارات السياسية العليا فى هذه البلاد بين احتلال بغيض غير مشروع وسياسة تركية يخفف من حدتها ضعف سلطانها ومايلابسها من صلة روحية بمصر، ثم استشراف مصر إلى الجلاء والاستقلال والحياة الدستورية مما جعل الوضع السياسى لمصر معقداً .

واضطر الشاعر أن يراعى التوازن فى شعره بين هذه الجوانب ومما يلاحظ أنه كان شديد الاحتفال بالأتراك فارغاً للأسرة المالكة المصرية وفقا لمطالبة النفسية واقفا لانجلترا بالمرصاد مع الخديوى وفى حدود ما يرى ، والواقع أن شعر شوقى فى هذه الفترة يعد سجلا لمواقعها الرئيسية وهو وحده ديوان أدبى لتاريخها ، ويكفى أن نشير هنا إلى بعض الأمثلة لنرسم السبيل .

أرسله عباس الثانى مندوبا للحكومة المصرية بمؤتمر المستشرقين الذى عقد بمدينة جنيف بسويسرا فى سبتمبر ١٨٩٤م فألقى هناك همزيته فى تاريخ مصر إلى عهده ومطلعها :

همت الفلك واحتواها الماء
وحداها بمن تقل الرجاء

يقول فيها مما يتصل بحملة نابليون :

وأتى النسر ينهب الأرض نهبا
حوله قومه النسور ظماء
يشتهى النيل أن يشيد عليه
دولة عرضها الثرى والسماء

حلت رومه بها فى الليالى ورآها القياصر الأقوياء
فأتت مصر رسلهم تتوالى وترامت سودانها العلماء
ولو استشهد الفرنسيس روما لأتتهم من روما الأنباء

ومهما يكن من قيمة هذه الهزيمة فلعل الذين يعرفون الغاية من مؤتمرات المستشرقين يدركون أن هذه القصيدة لم تكن ذات أهمية كتلك البحوث العلمية التي تتجه فى هذه المؤتمرات .

وتحدث حادثة دنشواى ويمر عليها عام والناس يلحون فى طلب العفو عن سجنائها فيقول شوقى :

يا دنشواى على رباك سلام
ذهبت بأنس ربوعك الأيام
شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا
هيهات للشمل الشتيت نظام
مرت عليهم فى اللحود أهلة
ومضى عليهم فى القيود العام
نوحى حمائم دنشواى وروعى
شعبا بوادى النيل ليس ينام
السوط يعمل والمشانق أربع
متوحدات والجنود قيام
والمستشار إلى الفظائع ناظر
تدمى جلود حوله وعظام

ولقد مرت بمصر حادثة فظيعة لم يقل فيها شوقى أول الأمر شيئا تلك هى حادثة دنشواى ولم ينطق إلا بعد مرور عام(١) .

---

(١) فى الأدب الحديث الجزء الثانى ص ٩٤

كان المنتظر من شوقى وأمثال شوقى أن يعبروا عن عواطف المصريين جميعا إزاء الكارثة وأن يشعلوها نارا مضطرمة الأوار متأججة السعير تحرق تلك القلوب الغليظة التى انتقمت من غير شفقة ولا رحمة من قوم عزل ضعاف مظلومين ولكن شوقيا اتبع سياسة القصر فى ذلك سياسة الحياد والمهادنة والخوف من كرومر الطاغية(١) .

بل نرى شوقى يتورط أحيانا فى مدح الإنجليز تبعا لتشكل موقفه السياسى منهم وقتئذ بموقف القصر أو تبعا لسيره حينذاك فى طريق المصلحة الشخصية ومن ذلك الشعر المتورط قصيدته التى قالها بمناسبة حفل تتويج الملك أدوارد السابع سنة ١٩٠٢ تلك القصيدة التى يقول فيها عن موكب الملك البريطانى :

إلى موكب لم تخرج الأرض مثله
ولن يتهادى فوقها من يقاربه
إذ سار فيه سادة الناس خلفه
وشدت مغاوير الملوك ركائبه

ولا شك أن حادثة دنشواى من الجروح الأليمة فى أديم مصر وفى تاريخها الحديث وقد صور شوقى لفتحها والألم لم يبلغ فى ذلك مايجب ولعلها تستحق أن تقيم درامه مروعة يتهض بكتابتها أدباء المسرح الحديث .

ويذكر شوقى حريق ميت عمر المشهور فيتألم لهذه المدينة ويصف مآسيها الفاجعة يقول :

---

(١) المرجع السابق ص ٩٦

لو أن فيرون الجـاد قواده
يدعى لمنظرها لعاف المنظرا
أو أنه ابتلى الخيل بمثلها
أستغفر الرحمن ولى مدبرا

وكان شاعرنا يرقب أطوار الحياة السياسية والاجتماعية فى تركيا ، فيسجلها واحدة واحدة وشعره فى هذا الباب جيد كثير يعتمد على شعور صادق وعلى هذه الصلة بين القاهرة والاستانة وعلى أساس جنسى ودينى .

وكان شوقى على كل حال ظل عباس الثانى فى هذه المواقف وظل الرأى المصرى والإسلامى العام إلى حد كبير فتى حرب تركيا واليونان الأولى يقول بائيته التى خاطب فيها السلطان عبد الحميد :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب
وينصر دين الله أيان تضرب
نزل الهـلال عن السماء فليتها
طويت وعم العـالمين ظلام

ويقول فى الدستور العثمانى :

الرأى رأى أمـير المؤمنين
جارت رجال وضلت فى مراثيها
وإنما هى شورى الله جاء بها
كتابه الحق يعليهـا ويغليهـا

وفى ظل الراية الإسلامية التى ترفعها تركيا وترقبها البلاد الإسلامية يغنى شوقى بميلاد الرسول والسنة الهجرية ويضفى على الوقائع التركية لونا

من الوقائع الإسلامية الأولى حتى طبع قسم كبير من شعره بهذا الطابع الإسلامى .

ومع عنايته بمصر وتركيا لم يغفل الأحداث والمسائل المالية العامة التى تستوقف نظر العالم وتستدعى عنايته سواء منها ما يتصل بالماضى وما يتصل بالحاضر فلما زار اثينا سنة ١٩١٢ لحضور مؤتمر المستشرقين قال فيها :

إن تسألنى عن مصر أحواء القوى وقراره التاريخ والآثار
فالصبح فى منف وطيبة واضح من ذا يلاقى الصبح بالأفكار

الحقيقة الإسلامية فى شعر شوقى

من يطلع على الشوقيات يستطيع أن يتبين الحقيقة الإسلامية إما فى قصائده التى اتجه بها نحو مدح الرسول عليه السلام وإما فى قصائده الكثيرة التى يتغنى فيها بالخليفة وبالترك وشجاعتهم وخلقهم وما ينوطهم به المسلمون من آمال تجيش فى صدورهم .

ولشوقى فى هذا الباب قصائد كثيرة وخاصة فى عهد الخليفة عبد الحميد ومن أروع مانظمه فى هذه التركيات قصيدته « صدى الحرية »

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب
وينصر دين الله أيان تضرب
وما السيف إلا آية الملك فى الورى
ولا الأمـــر إلا للذى يتغلب

والاندلس الجديدة :

يا أخت أندلس عليـــك سلام
هوت الخلافة عنك والاسلام
نزل الهلال عن السماء فليتها
طويت وعم العالمين ظلام

تحية الترك :

بحمـــد الله رب العالمينا وحمدك يا أمير المؤمنين
لقينا فى عدوك ما لقينا لقينا الفتح والنصر المبينا

ولا يقرأ الإنسان هذه القصائد حتى يحس عاطفة قوية ويعلل ذلك شوقى ضيف (ربما كان ذلك يرجع من بعض الوجوه إلى عنصر شوقى

التركى فكان يستشعر فى نظمه أباءه وأصوله وفى الوقت نفسه كان يريد أن يرضى سيده وكان أيضا يريد أن يرضى الشعوب الإسلامية فاجتمعت أسباب متشابكة لتضفى على تركياته جمالا وقوة)(١) .

وقصائده التى اتجه بها نحو مدح الرسول الكريم أشهرها نهج البردة والهمزية وتعدان أحفل شعره المحافظ بمظاهر التقليد فقد جرى فى نظمها على المعتاد فى جمهرة شعره وزاد فاتخذ فيهما من البوصيرى استاذا يقتبس منه ويتشبه به ثم لا يكاد يقتصر فى هذا ولا ذاك فانما يريد أن يكونه وكفى(٢) ويبدوا أن البوصيرى فى قصيدتى البردة والهمزية لم يتخذ من شاعر أماما ولا من شعر مثالا فجاءنا صورة لنفسه أو وحيا عن حسه .

والغالب أنه مع ذلك فكر فى بعض ما دحى الرسول ونظر إلى بعض مدائحهم فيه كدأب الناس كلما عالجوا امرا ذا بال ، وكان للسابقين فيه مقام وذكر ، فإذا صح هذا فكعب بن زهير على ما أرجح أحق أن يكون أسبق السابقين إليه ، وأطولهم ملازمة له . وقصيدته (بانت سعاد) أحق تبعا لذلك أن تكون أول المدائح النبوية خطورا بالبال وأوضحها تمثلا له وأشدها اثارة لا نتباهه فقد ظفر كعب وقصيدته من سعة الشهرة وحفاوة الأدب بأفضل ما يظفر به منهما شاعر وقصيدة .

وكانت داعية البوصيرى قبل ذلك إلى نظم البردة تشبه داعية كعب إلى نظم بانت سعاد شبها كبيرا فكان كلاهما من الرسول عليه السلام بمقام العائذ المستشفع كربه الهم وضاقت عليه الأرض وتقطعت به الأسباب إلا أن كعبا كان يستشفع إلى الرســـول وصاحبه كان يستشفع به

---

(١) شوقى شاعر العصر الحديث ص ٢٩ للدكتور شوقى ضيف .
(٢) الدين والاخلاق فى شعر شوقى ص ٢١ على النجدى ناصف .

صلوات الله وسلامه عليه فكعب كان طريدا مشردا هجا الرسول وصد عن دعوته فسخط الرسول عليه وأهدر دمه فأشفق كعب وأيقن بالتلف ولم يدر أول الأمر ما يصنع ثم بداله أن يعوذ الرسول ويستشفع إليه بالشعر الذى أسخطه عليه ، فنظم بانت سعاد وقصد بها إليه فأمنه إليه وعفا عنه وتقبل قصيدته وأثابه عليها بردته الشريفة الطاهرة . وأما البوصيرى فكان مريضا عاجزا ولا أمل إلا فى بركته فنظم البردة يمدح فيها الرسول الكريم ويستشفعه إلى الله أن يلطف به ويكشف الضر عنه ومن قوله رحمة الله فى ذلك .

« فعملتها — يعنى القصيدة » وكررت انشادها وبكيت ودعوت وتوسلت ونمت فرأيت النبى ﷺ مسح على وجهى بيده المباركة وألقى على بردة فانتبهت ووجدت فى نهضة فقمت(١) ولأمر ما رأى رسول الله حين رآه يلقى عليه بردة . أليس ذلك هو ما فعل النبى إذا نشده كعب (بانت سعاد) أو ليس ذلك حقيقيا بالإشارة إلى البوصيرى حين فكر فى قصيدته كان يفكر أيضا فى كعب وقصيدته وأنه كان يغبط ويود لو أدرك بالبردة مثل الذى أدرك صاحبه ببانت سعاد وللبوصيرى بعد ذلك كله مدحه نبوية على نمط بانت سعاد فى الوزن والقافيه ومطلعها :

إلى متى أنت باللذات مشغول
وأنت عن كل ما قدمت مسئول

وعجيب أن يكون البوصيرى فى قصيدتيه هاتين على ما يبدو من الاستقلال والحفاظ على الشخصية وأن كان ليعيش فى عصر اتسم بالتقليد والجمود وأن يكون شوقى على ما نرى من الاقتداء والمحاكاة وإن كان ليعيش فى عصر تهيؤ ونهوض .

---

(١) فوات الوفيات

والباعث عند شوقى أنه نظمها بمناسبة حج عباس حلمى الثانى وسار الشاعر فى طريق البوصيرى ولقد تفصل فضيلة شيخ الجامع الازهر انذاك فشرحها وربما كان اروع ما فى القصيدة التى فتنت شيخ الازهر فجعلته يشرحها المقطع الخاص بالدفاع عن غزو الرسول مما يردده المبشرون وبعض المستشرقين عن الإسلام وأنه انتشر بالسيف والدم يقول :(١)

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا
لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهل وتضليل احلام وسفطة
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

وواضح أن شوقيا يدافع عن غزو الرسول وأنه لم يغز إلا بعد الدعوة بالحسنى وعرض قرآنه على الكفار وقد أخذ يقرر أن الشر لا ينحسم إلا عن طريق السيف إلا بالشر وراح يوازن بين الإسلام والمسيحية فرآها لم تنشر إلا عن طريق السيف والقوة على نحو ما هو معروف فى عهد قسطنطين وخلفائه ثم نظر فى دولها الحاضرة والدولة الإسلامية فوجد الدول المسيحية تعد كل ما تستطيع من قوة لتحطم الاسلام والمسلمين فهى التى تستغدى السيف وتسفح الدماء(٢) .

وفى كثير من جوانب شعر شوقى يردد هذا اللحن الدينى وما يتصل به من تمجيد الإسلام ويشعر الإنسان فى غير موقف بأنه راسخ العقيدة وهو القائل :

فلم أر غير حكم الله حكما ولم أردون باب الله بابا

---

(١) شوقى شاعر العصر الحديث — للدكتور شوقى ضيف

(٢) شوقى شاعر العصر الحديث ص ١٣٣ للدكتور شوقى ضيف .

على أنه ينبغى أن لا نبالغ وتصور نزعته الدينية ونظنها نزعة صوفية فيه ، فقد كان يغنى الجماعة الإسلامية بهذا ونحوه .

ثم اتجه إلى حث الأمة الاسلامية على استعادة أمجادها وبعث الأمجاد العربيه ومقاومة المفاسد التى جاءت بها المدينة الغربية وكان تلك نتيجة لتطور الحقيقة الإسلامية فى شعر شوقى .

أسباب نفيه

إذا كانت سنة ١٩١٤ قامت الحرب العظمى وسافر عباس الثانى إلى تركيا ولم يعد وأعلنت الحماية الإنجليزية على مصر ، وقطعت صلاتها بتركيا وتولى السلطان حسين كامل عرش البلاد فيقف شاعرنا مرتاعا لهذه الأحداث ويتعقد موقفه بين تركيته القائمة على الجنس والدين وبين انجلترا عودته بالأمس والمتسلطة عليه اليوم وبين مولاه عباس الذى حرم عرشه وبين هذا البيت العلوى الذى رعاه ويتزعمه اليوم السلطان حسين كامل فماذا يفعل بين هذه التيارات المتناقضة .

لقد حاول شوقى أن يؤلف بين هذه المتناقضات جميعاً فى لاميته التى قالها بعنوان السلطان حسين كامل :

الملك فيكم آل اسماعيلا
لا زال بيتكم يظل النيلا

هنأ السلطان وأثنى على الإنجليز وعتب على تركيا عداوتها لإنجلترا ووفى للبيت المصرى المالك وعزى المصريين ونعى عليهم اختلافهم وعطف على عباس قلب عمه السلطان حسين كامل كل ذلك فى هذه القصيدة التى تعرض خبر شعره وربما كانت فاتحة شعره القوى الجديد وأورد هنا بعضها فقد قال بعد المطلع :

لطف القضاء فلم يمل يوليكم
ركنا ولم يشف الحسود غليلا

هذى أصولكم وتلك فروعكم
جاء الصميم من الصميم بديلا

ووجدت أبائى على صدق الهوى
وكفى بآباء الرجـــال دليـــلا

وبرغم محاولته استرضاء الإنجليز لم ينجح لأن روح الحنق على الإنجليز كانت مظاهرها واضحة فى نفس القصيدة .

وانفض ملعبه وساهره على
أن الرواية لم تتم فصولا

واضطر شوقى إلى أن يرحل من مصر وترك له الإنجليز حرية أختيار البلد التى يريد أن يقيم فيه فاختار أسبانيا المحايدة وفضل ميناءها أشبيليه باعتبارها أقرب ميناء إلى مصر ونحن مضطرون أن نترك مصر معه وأن نسايره فى الأندلس نحو خمس سنين .

يراجع فى ذلك :

(١) وطنية شوقى : الحوفى .

(٢) ابن شوقى : حسن شوقى .

(٣) من نضال أحمد زكى أبو شادى مجلة أبولو ديسمبر سنة ١٩٣٢ ص ٣٨٥

المنفى وحياته فيه ومشاعره

وإذا كان هذا المنفى نقمة على شوقى الرجل فقد كان نعمة على شوقى الشاعر ، خرج به فى الحقيقة من السجن إلى الحرية ، فترك تقاليد القصر وعقد السياسة وعيون الرقباء إلى حيث يعيش حراً طليقاً فارغاً للشعر يعطيه كل مواهبه ويعطيه حقه من الإخـــلاص والعناية والتجويد ويتلقى عن وحيه ماشاء الشعر من جلال وروعة وجمال وعندى أن شاعرية شوقى الخالصة لم تنطلق من عقالها وتتخذ طريقها إلى النضج والاكتمال إلا منذ نفى ، ففى النفى توافر لشوقى مع هذه الحرية ذلك الحزن على حياته المصرية وما لا بسها أخيراً من أحداث تستدعى العظة والاعتبار ، ثم ما لقى فى الأندلس من عنصرين يعدهما معين الشعر : الطبيعة والتاريخ فاستطاع أن يستمد منهما هناك ما شاءت له عبقريته الفذة(١) .

أما طبيعة الأندلس فهى التى خرجت لنا شعر الطبيعة العزيز فى الأدب الأندلسى كما نجده عند ابن حمديس ، وابن هانىء وابن خفاجة .

ومن نماذج الوصف عند ابن حمديس :

وضراغم سكنت عرين رياســـة
تركت خرير الماء فيه زئيراً
فكأنما غشى النضار جسومها
وأذاب فى أفواهها البلورا

ومن نماذج الوصف لابن خفاجة :

وأرعن طماح الذوابة باذخ يطاول أعنان السماء بغارب

---

(١) أندلسيات شوقى : لصالح الأشتر ٦٩

يسد مهب الريح من كل وجهة
ويزحم ليلا شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الغلاة كأنه
طوال الليالى مفكر فى العواقب

وقد مر شوقى فى طريقه إلى الأندلس بقناة السويس مع أبنية فلم يمر بها ساكتا، بل أرخها أجل تاريخ أدبى سياسى ، أضفى عليها من نفسه جلالا ندر أن تظفر به وذلك بقصيدته المنشورة قناة السويس : التى يقول فيها : تلك يا أبنى القناة، لفوهكما فيها حياة ذكرى اسماعيل ورثاه ، وعليا مفاخر دنياه ،دولة الشرق المرجاه، وسلطانه الواسع الجاه طريق التجارة، والوسيلة والمنارة ، ومشرع الحضارة تعبرانها اليوم على فرجاة كأنها فلك النجاة خرجت بنا بين طوفان الحوادث ، وطغيان الكوارث ، تفارق مغتصبه مغزى القضية قد أخذ الأهبة وأستجمع كالأسد للرثبة .

أن للنفى لروعة وأن للنأى للوعة ، وقد جرت أحكام القضاء بأن تعبر هذا الماء حين الشر مضطرم واليأس محتوم، والعدو منتقم، والخصم محتكم ، وحين الشامت جذلان مبتسم ، يهز أبالدمع وأن لم ينسجم نفانا حكام عجم أعوان العدوان والظلم إلى آخر القصيدة(١) .

وأخيراً نزل إلى الأندلس هذا المحراب الجديد والكعبة القدسية لهذا الحاج الراغم ، فاستقبل هذه الآثار الخالدة للدولة العربية فاستخرج منها عبر التاريخ العابر ووصلها بعظات التاريخ الحاضر وكان يحسن التفكير والتصوير والتعبير حتى عدت أندلسياته صفحة خالدة للشعر والتاريخ .

ولعل أول من ذكر شوقى من الأندلسيين هو صقر قريش عبدالرحمن

---

(١) أسواق الذهب ٢٦

الداخل مؤسس مجد بن أميه هناك ومقيم هذه الدولة الأندلسية المستقلة ، ذلك الغريب العبقرى أول من يستحوذ على ذهن شاعرنا فيذكره، ويذكره بهذا الفن الأندلسى المحبوب ، التوشيح يختصه به مؤرخا دولته مشيداً بمجده الممتاز :

صحب الداخل من أخوته حدق خاض الغمار ابن ثمان
غلب الموج على قوته فكأن الموج من جند الزمان

ولم ينس ابن عباد ملك أشبيلية وأودية الطلح فقرن به نفسه وذكر غربته ووطنه معارضاً ابن زيدون فى قصيدته المشهورة قال شوقى يرحمه الله :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا
نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

ولو أنى طاوعت نفس لتركت هذا الحديث العام ووقفت عنه هذه القصيدة وحدها من وطنيات شوقى حيث التقت صيحات الغرباء واحتشد الفن فى أرفع درجاته ، ومع ذلك فسأتخذها مناسبة للإشارة إلى هذه المراسلة بالشعر بين شوقى فى منفاه وبين زميلية صبرى وحافظ فى مصر ، فقد كان شوقى أرسل إلى الإستاذ داود بركات هذين البيتين من هذه النونية وطلب إليه عرضها على اسماعيل صبرى :

يا سارى البرق يرمى عن جوانحنا
بعد الهدوء وتهمى عن مآقينا
لما ترقرق فى دمع السماء دما
هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا

ثم أرسل إلى حافظ ابراهيم هذه الأبيات :

يا ساكنى مصر أنا نزال على
عهد الوفاء ، وأن غبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم
شيئا نبل به أحشاد صاديا
كل المناهل بعد النيل آنية
ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

فأجابه حافظ بهذه الأبيات :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله
صاد ويسقى ريا مصر ويسقينا
والله ما طاب للإصحاب مورده
ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تتأعنه وأن فارقت شاطئه
وقد نأينا وأن كنا مقيمينا

وهكذا نجد طابع الغربة الحزينة سيطر على أندلسيات شوقى شعراً ونثراً ، فهناك نظم ديوانه : دول العرب وعظماء الإسلام : وأكثر ديوانه المنثور : أسواق الذهب : وليس ما نشر منها فيما أرى هو كل أندلسياته ولكنه ظفر فى منفاه بالشاعرية الخالدة التى أجتمعت له من روعة النفى ، وعبر الزمن ، وحرية النفس وحب الوطن ، فكان من ذلك أصفى شعره وأهم دواوينه الفنية والركن الأول فى بناء الشاعر شوقى .

ولما وضعت الحرب العظمى أوزارها تنقل شاعرنا بين معالم الأندلس

وقف على قصر الحمراء بغرناطة ولعله أنفس الآثار العربية هناك وقفة البحترى على ألوان كسرى وعارض سينيته بمثلها فقال :

اختلاف النهار والليل ينسى
اذكرا لى الصبـــا وأيام أنسى
وسلا مصر هل سلا القلب عنها
أو أسا جرحه الزمان المؤسى

ولو أننا فرغنا لدرس هذه السينية لاقتضتنا ساعات .

عودة الشاعر

وبعد لأى يغادر شوقى منفاه ويعود إلى مصر سنة ١٩١٩ م بعد أن أذن له الخديوى فؤاد بذلك فيفرح بعد يأسه ، وينتهى تجواله فى ربوع الأندلس ويتعجل فى مغادرة أسبانيا إلى مصر ولا ينتظر شوقى إبحار أولى السفن الأسبانية إلى السويس فموعد مغادرتها أسبانيا بعيد .(١)

والشاعر يتحرق شوقا إلى العودة ، ولهذا يبحر مع أهله إلى جنوا ومن ثم يركبون القطار إلى البندقية ، ليلحقوا بأول سفينة تغادر ميناءها إلى مصر .

وهكذا يعود شوقى إلى وطنه شيخا فى الحادى والخمسين من عمره وقد آلام المنفى وهمومه إحساساً بشيخوخته . ولكنه ما كاد يحط أقدامه فى بلده حتى يحس بقوة الشباب تتدفق من جديد فى عروقه :

فياوطنى لقيتك بعد يأس كأنى قد لقيت بك الشبابا

وعندما وصل شوقى الأسكندرية استقبله لفيف من أقاربه وأخلص أصدقائه .

أما القاهرة فقد كان استقبالها للشاعر العائد رائعاً حقاً ، فقد تجمع فى فناء محطتها آلاف الطلبة لتحيته .

وغص ميدان المحطة بجموع الشباب ، وما أن نزل شوقى من القطار حتى دوى الهتاف بحياته فى حماسة طاغية . وحمله الطلاب على أعناقهم فى عاطفة من التهليل والتصفيق حتى السيارة .

---

(١) أندلسيات شوقى : صالح الأشتر ٤٠

كان هؤلاء الطلاب الشباب جنود الميدان فى تلك الساعة . تفتحت فى نفوسهم تلك البذور التى زرعها مصطفى كامل ، ورعاها من بعده فيهم الزعيم سعد زغلول .

إنه الجيل الجديد الذى سيخط بيده تاريخ مصر الحديث . فى عيونه نظرات العزم ، وفى دمائه غليان الرجولة ، وفى أعصابه ثورة الكرامة ، إنه الشعب الذى استيقظت طليعته ، ففتحت أعينها ورأت ماتعانيه مصر المرزأة من ظلم سياسى واقتصادى .

لقى شاعرنا أوضاعاً جديدة واتجاهات مختلفة ، من ملك جليل عاهل يجلس على عرش مصر .. فؤاد الأول ، ويشرف على هذا النشاط المصرى المتعدد النواحى فى أعقاب الحرب العظمى ، ومن نهضة مصر يقودها سعد وصحبه متفقين ومختلفين وأحزاب قديمة وحديثة . وشبان متقدمون وقوداً لهذه النهضة ، ومن اقتصاد قومى فى ظل بنك مصر ومنشآته ومن يقظة اجتماعية تتناول المرأة والعامل والتقاليد ، ومن نهضه علمية عامة يسندها الأزهر والجامعة ودار العلوم وغيرها من معاهد ومسارح وكل شىء فى مصر أخذ يتحرك مجداً نشيطاً ، والحكومة تساير ذلك كله بارشاد البرلمان

والخلافة قد بدأت تلفظ أنفاسها بعد الهزائم التى لحقت بتركيا خلال الحرب الكبرى ، ثم كانت نهايتها حين ألغاها مصطفى كمال ، وأقام فى تركيا دولة جمهوريه حديثة ، وهكذا لم تعد مصر جزءا من الدولة العثمانية بعد زوال هذه الرابطة التى كانت تشدها إليها فيما سبق .

أما الإنجليز ، فقد عدلوا من موقفهم فى مصر تحت الضغوط التى أحدثتها ثورة سنة ١٩١٩ م فبدأوا يقنعون استعمارهم بقناع من الاستقلال الشكلى ، وراحوا يعملون على تحقيق أهدافهم بالتآمر مع القصر ، أو بتسخير بعض الزعماء المنحرفين .

وقد كان بريق الحكم قد أعشى بعض العيون فتفرق زعماء ثوره ١٩ إلى حزبين رئيسيين، الأول حزب الوفد الذى رأسه سعد زغلول والذى كان - رغم كل مايقال - يمثل القوى الوطنية المناضلة، وينال ثقة الغالبية العظمى من أبناء الوطن ؛ والحزب الثانى هو حزب الأحرار الدستوريين، الذى كان رئيسه أولا عدلى يكن ثم عبدالعزيز فهمى، والذى كان يمثل العناصر الاقطاعية والارستقراطية :

وكان إلى جانب هذين الحزبين الكبيرين عدة أحزاب أخرى لم يكن لها نفوذ الحزبين الرئيسيين .

ومن هذه الأحزاب الحزب الوطنى الذى فقد الكثير من قوته بعد انتهاء الخلافة وموت كبار زعمائه، وأصبح يمثل النضال الوطنى المنشود والطموح السياسى الذى لم يكن عملياً فى نظر السياسيين فى ذلك الحين وحاول الشاعر أن يتقرب من القصر ولكنه لم ينجح فى هذه المحاولة إلا بمقدار :

ولذلك ظل موقفه الوطنى أول الأمر متأرجحاً لايجارى الشعب إلى نهاية الشوط فى حماسته الوطنية الجارفة، ولعلنا نلمح هذا الموقف واضحاً فى القصيدة التى نظمها فى سنة ١٩٢٠ عن مشروع ملنر الذى أجمع الوطنيون على رفضه ومقاطعة اللجنة كلها مقاطعة تامة .

ومع ذلك نرى أحمد شوقى يدعو مواطنيه إلى قبوله قائلا فى هذه القصيدة :

لا تستقلوه فما دهركم بحاتم الجود ولا كعبه
نسمع بالحق ولم نطلع على قنا الحق ولا قضبه
ينال باللين الفتى بعض ما يعجز بالشدة عن غضبه

وقد كان لهذه القصيدة وقع سيء فى نفوس المواطنين وأحس شوقى بزلته فعدل عن روح التخاذل ، وصدر عن روح وطنية شعبية فى القصيدة التى نظمها بعد عامين عن مشروع ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وكان الانجليز قد أعلنوا به نهاية الحماية البريطانية وقيام الملكية فى مصر وتولية السلطان أحمد فؤاد ملكا على عرشها وان كانوا قد شفعوا هذا التصريح بتحفظات أربعة وهذه التحفظات هى: —

١ — تأمين المواصلات البريطانية الامبراطورية فى مصر .

٢ — حماية مصالح الاجانب والأقلية .

٣ — الدفاع عن مصر فى حالة الاعتداء عليها سواء أكان اعتداء مباشرا أم غير مباشر .

٤ — مسألة السودان .

فرغت هذه التحفظات الاستقلال عن مضمونه الحقيقى ومن ثم لم يرق أبدا هذا التصريح فى عين أحد من المواطنين فقد لمحوا سم الثعلب الأزرق فى ثناياه .

وكانت هذه حلقة أخرى من حلقات الصراع الوطنى من أجل الحرية والاستقلال ، حلقة جديدة قدر لشوقى ان يعاصرها وان يعيش فى أحداثها الجليلة يوما بعد يوم ، ودقيقة بدقيقة ومن ثم كان عليه أن يدلى بدلوه فيها .

وان يعبر عن موقف البلاد إزاء تلك الاحداث التى تمر بها ثم من بعد موقفه هو أيضا . كان موقف شوقى يدل — هذه المرة على الرفض ، فهو يتحدث عن الجهاد والكفاح ، أن لا راحة الا بعد جهاد ونضال وشقاء ، وبذل النفس والنفيس فى سبيل الغايات السامية والأهداف الرفيعة .

انظر الى شوقى ينطق الحكمة فى فاتحة قصيدته ٢٨ فبراير :

اعدت الراحة الكبرى لمن تعبا
وفاز بالحق من لم يأله طلبا

وعلى أية حال فان المتتبع لنتاج احمد شوقى الشعرى بعد عودته من المنفى يحس فى وضوح بتطوره المستمر نحو الاقتراب من الشعب ومن قضاياه الوطنية والاجتماعيه ، ثم تطوره مع الشعب أيضا نحو الاحساس القوى بالتضامن والقومية العربية فشوقى يتابع المد الوطنى والثورى والقومى لشعبه ولامته العربيه كلها ، ويحزن عندما يدب الخلاف بين صفوف الزعماء الذين قاموا بتحدين بثورة ١٩ ، وعندما يصل هذا الخلاف الى حد تهديد قضية الوطن ذاتها يصيح الشاعر بهؤلاء الزعماء صيحته الخالدة سنة ١٩٢٤ فى القصيدة التى نظمها عندئذ بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة الزعيم مصطفى كامل ، وسماها شهيد الحق واستهلها بقول :

الام الخلف بينكم الاما وهذى الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاما
واين الفوز لا مصر استقرت على حال ولا السودان داما

ولما نجا سعد زغلول من الاعتداء عليه وهو مسافر الى انجلترا للمفاوضه مع حكومتها هناه شوقى بالنجاة بقصيدته التى يقولها :

نجا وتماثل ربانها ردق البشائر ركبانها
ويا سعد انت امين البلاد قد امتلأت منك ايمانها
ولن ترضى أن تقد القناة ويبتر من مصر سودانها

ويفرج عن سجناء المحاكم العسكرية الانجليزية سنة ١٩٢٤ فى وزارة سعد زغلول فيقول :

يامصر اشبال العرين ترعرت ومشت اليك من السجون أسودا
طلبوا الجلاء على الجهاد يثوبه لم يطلبوا اجر الجهاد زهيدا
والله مادون الجلاء ويومه يوم تسميه الكنانة عيدا

وفى الناحية الاقتصادية تراه يقول فى الاحتفال بانشاء بنك مصر من قصيدة :

قف بالممالك وانظر دولة المال واذكر رجالا أدالوها باجمال
يا طالبا لمعالى الملك مجتهدا خذها من العلم او خذها من المال
هاتو الرجال وهاتوا المال واحتشدوا
رأيا لرأى ومثقالا لمثقال
هذا هو الحجر الدرى بينكمو فابنوا بناء قريش بيتها العالى

وكذلك لما وضع الحجر الاساس فى بنائه سنة ١٩٢٥م ثم يكون مشروع القرش سنة ١٩٣٢م فيشارك الشباب الاحتفال به بقصيدة لعلها آخر ما قال وهى التى تليت يوم وفاته رحمه الله :

لا يقيمن على الضيم الأسد نزع الشبل من الغاب الوتد
فتية الوادى عرفنا صوتكم مرحبا بالطائر الشادى الغرد
هو صوت الحق لم يبلغ ولم
يحمل الحقد ولم يخف الحسد

الجانب الاجتماعى

وكانت هنا ولا تزال نهضة اجتماعية تناولت المرأة والصحافة والعمال فشارك فيها شاعرنا قال فى نقابة الصحافة :

لكل زمان مضى آيـــة وآية هـذا الزمان الصحف

ويتحدث عن دور العمال فى النهضة الاجتماعية فيقول :

أيها العمال افنوا العمر كدا واكتسابا

ويشيع انتحار الطلبة اثر سقوطهم فى الامتحان فيقطع عليهم سبيل اليأس ويبسط لهم مجال الامل بقوله :

ناشىء فى الورد من أيامه حسبه الله ، أبا لورد عشر

ويصيح فى وجه الشيوخ الذين يرغبون فى الزواج من الفتيات فيقول:

ظـلم الرجال نساءهم وتعسفوا هـل للنساء بمصر من أنصار

وتقوم معركة أدبية بين أنصار السفور وأنصار الحجاب فيقول فى ذلك قصيدة رقيقة ينصح فيها الفتاة بالاناة ويحذرها مزالق الحياة .

صداح يامـــلك الكنار ويا أمـــير البلبل

وقد عنى بالنهضة العلمية فحيا الجامعة والازهر ودار العلوم والمعلمين. فيقول فى الأزهر :

قم فى فم الدنيا وحى الأزهرا وانثر على سمع الزمان الجوهرا

واجعل مكان الدران فصلتة فى مدحه خرز السماء النيرا

واذكره بعد المسجدين معظما لمساجد الله الثلاثة مكبرا

أثر الغربة فى شعره

كان شوقى فى أول حياته لا يميل إلى المديح، لأنه يفسد المواهب ولكنه بحكم صلته الوثيقة بقصر الخلافة فى تركيا والبيت الحاكم فى مصر اضطر إلى المديح، وكان يزدهيه فى مطلع شبابه أن يكون شاعر الأمير لما فى ذلك من شهادة بتفوقه وامتيازه.

شاعر العزيز وما بالقليل ذا اللقب

ويرغم نفوره الطبيعى من المديح جاءت شاعريته بغرر القصائد فى مدح الخليفة، والجالسين على عرش مصر، ويرجع سبب اجادته لتلك القصائد أنه كان يصدر عن انفعال صادق، حيث يرى الخلافة الإسلامية رمز وحدة الأقطار العربية ينشب الاستعمار فيها أظفاره.

وشوقى كان يعترف بفضل اسماعيل فهو يمدح البيت الحاكم استجابة لما فى طبعه من سجية الوفاء.

أأخون اسماعيل فى أبنائه ولقد ولدت باب اسماعيلا

وهذا الصدق الفنى هو ما أعوز أكثر شعراء المديح حين صاغوا آيات الثناء والتمجيد فى الحكام نفاقا وتزلفا استجداء للعطاء. وتوزعت شخصية شوقى بين وفائه لارباب نعمته وولائه لفنه الشعرى ولأمته، وحاول أن يوفق بين هذا وذاك فكان يزجى النصائح للحكام، ويذكرهم بحقوق الشعب فى مهارة يبدو معها كأنه يجعل هؤلاء الحكام معقد الرجاء لرعاية هذه الحقوق وقصائد المديح — قبل المنفى مسرفة فى الثناء على ممدوحيه بما لا يستحقون ولكننا لو تعاطفنا مع قصائد المديح فى هذه الفترة لوجدنا الشاعر يرسم صورة مثالية للحاكم العادل الذى افتقدته البلاد طويلا. وبعد أن تحرر من القصر واتجه إلى الشعب والأمة العربية والإسلامية أخذ مكانه قائدا

نضاليا يدافع عن كل هذه القضايا ومن يطالع ديوان شوقى يجد أن الرثاء يشغل حيزا كبيرا منه . وهذا الرثاء أعمق من المديح لأن شوقيا فى مديحه كان يتجه نحو الحكام والولاة ، ولكن الرثاء اتسع لكل دعاة الاصلاح من مختلف الطبقات . ولقد عاب عليه بعض النقاد أسرافه فى الرثاء فرد عليهم يقول :

يقولون : يرثى الراحلين فويحهم
أ أملت عند الراحلين الجوائزيا

ولقد خطا شوقى بخطوة أرحب فى رثائه من البارودى فقد كان الرثاء عند البارودى مقصورا على أهله وذويه وكان يصدر عن معاناة حقيقية ، ثم جاء من بعده شوقى فانطلق به فى الاتجاه القومى العام ، ونشعر باندماجه فى الموقف الشعرى، وقوة انفعاله به فى تمثيل المرثيه للفقيد بحيث لو حاولنا نقلها إلى فقيد آخر لما استطعنا إلى ذلك سبيلا . كقوله فى رثاء عبده الحامولى أمير الغناء فى عصره :

ساجع الليل طار عن أوكاره وتولى من على آثاره

ومنها البيت المشهور :

يسمع الليل منه فى الفجر يا ليل فيصغى مستهلا فى فراره

أحب شوقى التاريخ فى أول حياته الأدبية وازداد عشقه له بعد أن أطلع على الثقافه الأوربية وقرأ لهو جو ديو انه. وشوقى ينتخب من التاريخ مايحمل العظة والعبرة فلم ينهج نهج القدماء فى سرد الأحداث وذكر الشخصيات ، وقرأ التاريخ المصرى القديم وتاريخ مصر الإسلامية وتاريخ الترك وله قصائد أربعه فى كل ذلك وهذه القصائد تعمد إلى هدف وتقصد إلى غاية كما صرح بذلك فى قوله :

غال بالتاريخ وأجعل صحفه من كتاب الله فى الاجلال قابا
قلب الأنجيل وانظر فى الهوى تلق للتاريخ وزنا وحسابا
واطلب الخلد ورمه منزلا تجد الخلد من التاريخ بابا
مثل القوم نسوا تاريخهم كالقيط عى فى الناس انتسابا

وله فى البطولات الإسلامية قصائد شهيرة منها :

نهج البردة والهمزية . وقد ألم الشاعر فى هاتين القصيدتين بتاريخ الأمة العربية . ووازن بين حال الناس بعامة قبل البعثة، وحالهم بعد مجىء الهدى كقوله يناجى الرسول الكريم .

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم قد هام فى صنم
والأرض مملوءة جورا مسخرة بكل طاغية فى الأرض محتكم

ووقف شوقى على روائع الآثار يستلهمها العظة والعبرة وقال فى الأندلس قصائد رائعة منها القصيدة السينية التى يعارض بها ابن زيدون ومطلعها :

يانائح الطلح أشباه عوادينا نأسى لواديك أم نشجى لوادينا

وسبقت الأشارة إلى دوره السياسى ، وشعره الاجتماعى يكاد يكون غرضا جديدا على الأدب العربى إذ استثنينا شعر أبى العلاء المعرى . أما كثر الشعراء فقد حصروا أنفسهم فى دائرة الملوك والأمراء ، ويندر التفاتهم إلى الطبيعة الكادحة ، ومن شعره الاجتماعى قوله فى الحث على مساعدة الهلال الأحمر :

جبريل هلل فى السماء وكبر أكتب ثواب المحسنين وسطر
سل للفقير على تكرمه الغنى وأطلب مزيدا فى الرخاء لموسر

وشوقى مضى بمظاهر النهضة العلميـة فى مصر حيث يقول فى إنشاء الجامعة المصرية قصيدتين رائعتين ، ويحرص على اغراء الأمة بالعلم ويجعل المعلم فى أسمى منزلة :

قم للمعـلم وفـه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

ويتغنى بتأسيس بنك مصر ، ويثنى على كل من يقـدم مكرمه لبلاده ويقول فى العمال وبحثهم على النهوض بمصر .

وقوله فى رثاء ولده على شوقى :

أنا من مات ومن مات أنا لقى المـوت كلانـا مرتين
نحن كنا مهجـة فى بدن ثم صرنـا مهجة فى بدنـين
ثم عدنا مهجة فى بدن ثم نلقى جثة فى كفنين
ثم نحيـا فى على بعـــدنا وبه نبعث أولى البعثتـــين

ولقد أكثر شوقى من أبيات الحكمة على عادة شعراء العربية وبخاصة المتنبى ، وهذه الحكمة وليدة الثقافة والتجربة ، فلم يكن لشوقى مذهب فلسفى يصدر عنه وإنما كان مثقفا ثقافة ممتازة مطلعا على الفلسفة كثير التأمل فى أسرار الكون والحياة وما وراء الموت ووجد شوقى الحكمة أحدى الدعائم التى تبنى عليها الأمم وله أبيات شهيرة فى هذ المعنى منها قوله :

وإنما الأمم الأخلاق مابقيت فأن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقوله :

وليس بعامـر بنيـان قوم إذا أخلاقهم كانت خـرابا

وهذه الحكم مبثوثة فى شعره برسلها إرسالا فى يسر وسهولة وبعضها قد ألم به القدماء وصاغها شوقى صياغة جديدة وبعضها من وحى تجاربه .

ويرى بعض النقاد أن غزل شوقى متكلف لا يمثل عاطفة صادقة وهذا النقد يصـدق على قصائد المرحلة التى قيده فيها القصر ، حيث أن التقاليد

كانت تحول بينه وبين لواعج عشقه ، والافصاح عن حبه وقد اقتتح بعض قصائده على طريقة القدماء ، ولكن ساسه القصر طلبوا حذف النسيب والابقاء على المديح ومن ثم فترت همة الشاعر . ومع ذلك فقد استطاع أن يعبر عن مواجد العشق عند أبطال مسرحياته .

المسرحيات :

أهم أعمال شوقى الجديدة فن المسرحية، فلم يسبقه فى ذلك إلا محاولات لم تكتب لها الحياة . ومسرحياته من حيث الصياغة والنص الشعرى فى القمة لكنها من حيث الفنية المسرحية عليها مآخذ كثيرة منها أن شوقى كان يكتب مناظر الفصل فى شكل قطع غنائية بدون ملاحظة للجمهور .

وفى ذلك دليل قاطع على أن شوقيا مشتغل ، وخاصة فى مآسيه من مثل مجنون ليلى ، بالغناء عن التمثيل ، أو قل أنه ثأثر الغناء إلى حد بعيد . ومع هذا لا نستطيع أن ننكر أنه درس المأساة القريبة ، وأنه حاول جاهدا أن يثبت قدرته على محاكاتها وتقليدها (١) .

ينقص مسرحيات شوقى العنصر الدرامى الذى قوامـــه المفاجئات المسرحية المختلفة وطرق قيادة الأحداث إلى نتائجها النفسية والاخلاقية.

عدم انتخاب الشاعر لوزن معين فى مسرحياته حملة شديدة من النقاد على نحو مايرى القارئ فى نقد العقاد لقميص حتى ليقول طه حسين هذه العبارة :

أما عن التمثيل فقد غنى شوقى فأطرب وأثر ولكنه لم يمثل ، لأن التمثيل لا يرتجل ارتجالا ولا يهجم عليه وإنما هو فن يحتاج إلى الشباب والدرس والقراءة فكان تمثيله صورا تنقصها الروح ، وأن حببها إلى الناس ما فيها من براعة الغناء .(٢)

---

(١) شوقى شاعر العصر الحديث ص١٨ : شوقى ضيف .

(٢) حافظ — شوقى ص ٢٢١ .

كان اتخاذه التاريخ مادة مآسيه من الأسباب التى منعت مسرحه من أن يلقى إقبالا شعبياً كبير وذلك لأنه وإن يكن هذا التاريخ هو تاريخنا القومى إلا أن الجمهور كان يفضل بلاريب أن يرى فى ذلك المسرح مآسى حياته بدلا من مآسى التاريخ التى يعد بها العهد والتى قد تحتاج إلى متابعتها والانفعال بها قدراً من الثقافة التاريخية .

والواقع أن النقاد قد اتخذوا من موقف شوقى إزاء التجارب التاريخية التى اختارها هدفا لتقدمهم اللاذع .

فرأى بعضهم أن شوقى قد أساء الاختيار فى عدة مسرحيات بل ولاحظ تناقضاً بين ما اختار والهدف الذى رمى إليـــه وأفصح عنه فى النظرات التحليلية التى ذيل بها مسرحياته ، حيث تطالع فى تلك النظرات أن هدفه الأساسى كان تمجيد العرب والمصريين القدماء ، بينما يلاحظ هـذا النفر وبخاصة النقاد أنه قد اختار لبعض تلك المسرحيات موضوعات وفترات من تاريخ مصر والعرب كانت من أحلك فترات التاريخ وأكثرها انحطاطاً بل وانحلالا ، مثل فترة ضعف المصريين وانحلالهم وسيطرة جنود المرتزقة على قوات الوطن الدفاعية ، كما هو الحال فى مسرحية منبيز وغزو الفرس لمصر والقضاء على استقلالها الذى لم تستره منذ ذلك الحين إلا فى أيامنـا الأخيرة .

ومثل مسرحية على بك الكبير التى تمثل فترة انحلال أخلاقى ووطنى شديد فى عصر المماليك وغدر بعضهم ببعض حتى أصبحت البلاد نهبا لأطماعهم ومرتعاً لبغيهم وفكاهم على المغانم والشهوات .

ثم مصرع كليوباترا التى تفصل هى الأخرى أحداث انهيار مصر ووقوع مصر فريسة فى يد الرومان فى أعقاب انحلال أسرة البطالسة وعبث امرأة هلوك كليوباترا التى لم تكن فوق ذلك مصرية فى شىء ولم يكن للشعب المصرى فى ذلك الحين أى وجود محسوس .

ويرد مندور على ذلك قائلا : أن عصور المجد والازدهار قد لا تتيح للكاتب المسرحى عنصر الصراع الذى تقوم عليه المآسى فى غالب الأمر، كما أن فترات المحن والكفاح الوطنى هى التى تظهر فى الغالب معدن الشعوب وصفاتها الأصلية ، وبذلك لا يكون شوقى قد أخطأ من الناحية الفنية ولا من الناحية الوطنية فى اختيار موضوعات مآسيه التاريخية من فترات المحن التى مرت بالمصريين أو بالعرب(١) .

وحسب شوقى أنه أول رائد لهذا الفن فى العصر الحديث كما رأى ذلك زكى المحاسنى فى أخريات حياة شوقى ، وبعد موته عرف النقاد فى آثاره المسرحية روعتها ، وعدها عملا أدبيا جديداً ، وأن الأدب الحديث، وإن يكن قد عرف الآثار المسرحيه عند بعض المؤلفين العرب قبل شوقى ، كالشاعر نجيب حداد ، لكن شوقياً تفرغ لهذا الفن فى الثلث الأخير من عمره فلم يغادر الحياة حتى أعطى الوجود المسرحى فى ديار العرب سبع تمثيليات فائقة .

وقد كان متأثراً فى فنه بآثار شكسبير خاصة حتى قلده فى رواية «مصرع كليوباترا »(٢).

ويذهب إلى ذلك فى مقارنة دقيقة عن تأثر شوقى بشكسبير فى رواية كليوباترا صلاح عبد الصبور(٣).

---

(١) المسرح لمندور ص٧٦

(٢) نظرات فى أدبنا المعاصر ص١٣

(٣) الهلال: عدد خاص عن شوقى ص٣٠

معانيـــه :

ينبغى أن نذكر أن الشعر كان فى عصر المماليك وفى أول النهضة ضعيفاً تافه المعانى ، فلما جاء رد البارودى قلد معانى السابقين من الشعراء المبرزين ، وبخاصة فى العصر العباسى .

وحين ظهر شوقى فى الميدان كان كثير من معانيه أضوأ وأعمق مما جاء به البارودى ، ومرد ذلك أن شوقيا اطلع على الثقافة الغربية وبخاصة الفرنسية وقرأ كثيراً من كتب التاريخ وغيرها فامتد أفقه الثقافى ، وظهر فى معانيه عمق وحسن تفكير . لذلك نستطيع أن نقول أن معانيه بعضها مقبوس من القديم ولكنه طوره وأحسن عرضه ، وبعضها جديد لم يعرفه الأدب العربى من قبل وقد ظهر ابتكاره فى الأغراض الجديدة كالتاريخ ، والسياسة ، والاجتماع والمسرح وترى أثر ذلك واضحاً فى النماذج التى عرضناها عليك.

صـــوره وأخيلته

١ — يستعين الشاعر بخياله ليجعل معانيه أشد تأثيراً فى النفس ، وأعمق وصولا إلى العاطفة ، وبعض أخيلته كذلك قديم كقوله يتغزل :

ويم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

وقوله ينصح :

وإذ النساء نشأن فى أمبـــة
رضع الرجال جهالة وخمولا

وبعض أخيلته جديد مبتكر يبدو فيه حسن التخيل وجمال التصوير كقوله عن الهلال الأحمر :

كأنه وردة حمراء قانيـــة
فى الخلف قد ففخت فى كف رضوان

وقوله فى الصلة بين الوطن وأبنائه :

وطن يرف هوى إلى شبابه
كالروض رقة على ريحانه

ألفـــاظه وأسـاليبه

تدلك قراءتك لشعر شوقى على الخصائص التالية فى ألفاظه وأساليبه :

١ — إلمام شوقى الدقيق باللغة ، واطلاعه الواسع على أساليبها كما وردت فى أدب السابقين وفى قواميس اللغة .

٢ — حرصه على استعمال اللفظ اللغوى الصحيح وترفعه عن العامى .

٣ — قدرة ممتازة على أن يضع كل لفظ فى موضعه الملائم له ، بحيث تحس أنه ليست هناك كلمة نابعة ولا تعبير قلق ، وبذلك تبدو فى شعره موسيقى حلوة رنانة .

٤ — قدرته على أن يوزع طاقته الذهنية على اللفظ والمعنى مما يعنى بموسيقى اللفظ وإن جاءت معانيه عادية مألوفه ، وبعضهم يهتم بالمعنى الجيد وإن ضعف أسلوبه كما فى كثير مما يسمى بشعر المجددين ، أما شوقى فكان يهتم بهما معاً .

الوجود العربى فى شعر شوقى

فإذا أردنا أن نتعرف على موقف شوقى السياسى ، من خلال شعره فى الفترة الثانية وجدنا ما يلى :

فيما يتعلق بالخلافة الغاربة، راح شوقى يبكيها ويوجه التقريع إلى مصطفى كمال مسدل الستار عليها .

ومن ذلك قول الشاعر من حائيته المشهورة :

ضجت عليك مآذن ومنابر
وبكت عليك ممالك ونواح

ولكن شوقياً قد أدرك أن الخلافة إذا زالت رسمياً ، فقد بقيت فكرة الارتباط بين الشعوب الإسلامية والعربية ، لا يمكن أن تزول .

ومن هنا راح الشاعر يهتم بشعره النضالى الرائع فى كل قضايا الأمم الإسلامية والعربية معتقدا أن أبناء هذه الأمم هم قومه الحقيقيون وآله الأقربون .

فحين تهب سوريا فى ثورتها ضد الاحتلال الفرنسى سنة ١٩٢٥ يذيع شوقى ثلاث قصائد حيث يقول فى الأولى مؤكداً أخوة الإسلام والعروبة ووحدة المأساة بين مصر وسوريا :

قم تاج جلق وأنشد رسم من باتوا
مشت على الأرض أحداث وأزمان

تغير المسجد المحزون واختلفت
على المنابر أحرار وعبدان

ثم يذيع شوقى قصيدته الثانيه سنة ١٩٢٦ بمناسبة نكبة دمشق محاولا

استنهاض همم مواطنيه فى نضالهم ضد الانجليز من خلال حديثه عن نضال إخواننا السوريين :

سلام من صبا بردى أرق
ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومقدرة اليراعة والقوافى
جلال الرزء عن وصف يدق

ومنها :

نصحت ونحن مختلفون داراً
بيان غير مختلف ونطق
وللأوطان فى دم كل حر
يد سلفت ودين مستحق
وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

ثم يذيع قصيدته التالية فى العام نفسه رابطا فيها معاناة قومه من أجل الحرية فى مصر ومعاناة إخوته من أجله فى سوريا ، واضحا أن الطريق الوحيد للنصر هو طريق الدم .

وفى تلك القصيدة ، يقول :

سلوا الحرية الحمراء عنا وعنكم . هل أذاقتنا الوصالا

وقريب من هذا يضع شوقى فى مؤازرة لبنان فى نكبة بيروت ومنها :

بيروت : يا راح النزيل وأنسه
يمضى الزمان على لا أسلوك

وفى مناصرة ليبيا يقول فى رثائه لعمر المختار متجها نحو الشعب الليبى:

يأيها الشعب القريب أسامع فأصوغ فى عمر الشهيد رثاء
أم الحمت فاك الخطوب وحرمت أذنيك حين تخاطب الاصغاء
ذهب الزعيم وانت باق خالد فانقد رجالك واختر الزعماء
وارح شيوخك من تكاليف الوغى
وأحمل على فتيانك الأعباء

وبالبداهة لم يعد شوقى ينظم فى مشاهد الطبيعة فى الاستعانة والبوسفور وما إليها من الأراضى التركية ، بل أخذ يكتب التاريخيات والوصفيات عن مصر والبلاد العربية الأخرى متى زخرت الشوقيات بالقصائد المصرية والعربية، واقامت التوازن ، بل رجحته مع التركيات والخلافيات وبخاصة بعد أن وفق العالمان الإنجليزيان الآثريان اللورد « كارتر » والمستر « كارنرفور » إلى إكتشاف قبر توت عنخ آمون الرائع فى وادى الملوك بالأقصر .

فنظم أحمد شوقى قصيدته الرائعة « توت عنخ آمون » التى تغنى فيها بامجاد مصر القديمة وما خلفت من آثار رائعة أجل الغناء مطلعها .

قفى يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا

كما نظم قصيدة أخرى بعنوان : توت عنخ آمون وحضارة عصره .

درجت على الكنز القرون واتت على الدم الستون
خير السيوف مضى الزمان عليه فى خير الجفون

وأخذ يدرك شوقى بوعى سليم مايشد هذه البلاد جميعا من روابط الدين واللغة والتاريخ وشتى مقومات الأمة الواحدة .

وبناء على هذا الوعى السليم لا يكاد يترك شوقى مناسبة عربية أو إسلامية دون أن يسهم فيها بشعره الإسلامى العربى ، مبشرا بأمة إسلامية قوية واحدة ، وقومية عربية متينة منتصرة .

وهذا أول ما يلاحظ على شوقى وموقفه السياسى فى هذه الفترة الثانية حيث يترك تمجيد الخلافة وتركيا ، أو حيث يقلل من ذلك تقليلا واضحا ليحل محل ذلك الاكثار من تمجيد الدول الإسلامية مؤازرة نضالها ، وليشيد بالعروبة والعرب والكفاح الذى يخوضه الشعب العربى من أجل حريته وكرامته مع التأكيد على أخوة تلك الشعوب واتحاد بينها الذين يجمعهم اللسان ، ويضمهم الشرق ، ويوحد بينهم الماضى والحاضر والمصير .

والملاحظة الثانية أنه أدار للقصر ظهره واتجه نحو الشعب وكان واضح الإيجابية والنضالية مع الإنجليز بعيدا عما عرف منه فى الفترة السابقة من التشكل بموقف النصر .

وموقفه من الأحزاب فى هذه الفترة موقف المحايد الذى يغنى آمال الأمة ويشدو بالقيم الكبرى التى يجمع عليها الشعب وهو بعد يقف من الزعماء موقف الداعى إلى وحدة الصف .

وهكذا يمكن أن يقال : أن الطابع الغالب على موقف شوقى السياسى فى هذه الفترة الثانية هو الطابع الحر الجرىء الإيجابى المناضل الذى أدرك به الشاعر ما فاته فى الفترة السابقة .

الروح الأندلسية فى شعر شوقى

إذ نظرنا إلى شعر شوقى فسنجد أن أول طيف للأندلس يطل علينا من وراء قافية بيت له ، من قصيدة القاها عام ١٨٩٤ فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى جنيف ،عرض فيها لرسالة الإسلام التى نبتت فى البيداء وأطلعت من الصحارى ، من قلب الخيام ، أسودا فتحوا الدنيا وقادوها نحو النور ، ونشروا فيها الحضارة وحكموا بعد لهم الأرض وعلى ذلك :

تشهد الصين والبحار وبغدا د ومصر والمغرب ، والحمراء ،

فهذه الحمراء رمز للحكم العربى والحضارة الإسلامية فى الأندلس وهى صورة غامضة جدا تمثل فى ذلك رصيد شوقى من « الفكرة الأندلسية » فى شعره (١) .

وتعود هذه الصورة الغامضة أيضا ، فتراها فى بيت من قصيدة شوقى التى رفعها إلى السلطان عبد الحميد ، عندما نزل فى ضيافته فى الاستانة .

وبيت الزمان (أندلسيا) ثم يضحى وناسه أعجام

وكأن ناشر ديوان شوقى أحسن بغموض الصورة أيضا فحاول عبثا إيضاحها حين فسر الزمان الأندلسى فى الهامش بأنه زمان الأندلس أيام عز العرب والإسلام فيها .

وتظل الصورة قائمة لا يزايلها غموضها حين تعود إليها مرة ثالثة فى القصيدة التى يمجد فيها السلطان محمد رشاد الخامس ، ويخاطب فى آخرها الاستانه وبتاجيها ترى محبا هائما بها ، ينتمى إليها بصلة الدم والقربى ، من طريق أمه وأبيه فهى إذاً مهد أصوله ، وقد حركت وحى شاعريته واطلقته قبسا يضيء الشرق قبسا فريدا .

لم تكثر الحمراء من نظرائه نسلا ولا بغداد من أفعاله

---

(١) أسبانيا كما يراها السياح المسلمون ص ١٢٠ .

والحمراء هنا — بحشرها فى زمرة واحدة مع بغداد والإستانة يجب أن تعكس مفهوم العاصمة الإسلامية الكبرى التى يؤمها الشعراء من كل جانب ، ويزد حم على أبوابها أصحاب المواهب فتكون لكل منهم مصدر وحيه وإلهامه .

وتعود صورة الأندلس مرة رابعة ، عندما يزور الخديوى عباس مدينة طنطا ، وللخديوى يد على هذه البلدة حين بعث الحياة والعمران فى رسمها البالى — كما تقول شوقى — وفجر فيها عيون العلم بإفشائه المعاهد والمدارس .

انظر إلى كل عال من معاهدها تنظر طليلة فى عصرها الخالى

فطليلة هذه تمثل دوراً لم يكن لهم فى تاريخ الأندلس ، وصاحب هذا الدور العظيم فى حياة الأندلس هى قرطبة وجامعها الكبير ، فإلى قرطبة لا إلى طليلة كان الطلاب يفدون من الشرق والغرب لينهلو فيها العلم ، ويتزودوا من المعرفة .

ولا نقول أن الوزن الشعرى هو الذى جاء « طليلة » هنا ولم يكن قادراً على الإتيان بقرطبة ، فمثل شوقى الشاعر الكبير ، لا يستعيده الوزن ولا تحكمه الصنعة .

إلى هنا تظل صورة الأندلس غامضة غائمة فى شعر شوقى ، ولن تفتح لأعيننا بعض الخطوط فيها إلا فى عام ١٩١٢ عندما تنهمر دموع الشاعر أثر سقوط أدرنة فى يد البلقان ، وبسقوطها هوى الإسلام عن مقاطعة مقدونياً فى عين الشاعر صورة ثابتة لضياع الأندلس(١) فقد حرج المسلمون من الأندلس ، وها هم أولاء اليوم يخرجون من مقدونيا ، فمقدونيا إذا

---

(١) أسبانيا كما يراها السياح المسلمين ص ١٢٠

أخت الأندلس جديدة من حق الشاعر أن يبكيها ، ويصور الجرح الذى أصاب المسلمين بسقوطها :

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والإسلام

وبعد أن يصف المسلمين الهاربين المهاجرين بعد سقوط مقدونيا ، يخاطب الأمة العثمانية فينعى عليها تفرقها وتخاذلها ، ويدعوها إلى الاتحاد والوئام وترك التفاخر فيقول :

وقف الزمان بكم كموقف طارق اليأس خلف والرجاء أمام

فموقف بنى عثمان اليوم كموقف طارق فاتح الأندلس حين أحرق سفن الجيش ودعا الجند إلى الصدق والعزيمة والرجاء والصبر .

هذه الصور الحزينة الجريحة التى يرسمها شوقى لنكبة العثمانيين فى مقدونيا أضفت بألوانها على الصورة الأخرى التى أراد أن يصور فيها نكبة العرب فى الأندلس ، ليعقد بين الصورتين صلة ، ويقارن بينهما ، ولكننا إذا قنعنا بما تقدمه هذه المقارنة من الخطوط المتشابهة ، والألوان المتماثلة بين الصورتين ، قلنا إن رصيد شوقى من الفكرة الأندلسية لا يزال فقيراً .

ونحن — بعد هذا — نستطيع أن نؤكد أن رصيد شوقى من هذه الفكرة حتى عام ١٩١٢ لا يزيد عماله فى الأندلس الجديدة .

وسنجد أن الروح الأندلسية ستظهر واضحة فى شعر الشاعر المغنى ذلك أنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها فى عام ١٩١٨ أصبح فى حرية له أن يسبح فى أرض أسبانيا متنقلا بين ربوعها وقد قام فعلا برحلة يروى فيها ظمأه لزيارة هذه البلاد ، وقد زار مدن طليلة وأشبيلية وقرطبة وغرناطة.

وكما يقول كان البحترى رفيقه فى هذه الرحلة وكان قد أعجب بسينيته

فى وصف إيوان كسرى حتى أنه كان يتمثل قابياتها كلما وقعت عينه على أثر من آثار العرب بهذه المدن ورأى أن البحترى اتعظ بالآثار وخلدها فى ديوان شعره فرغب فى أن يسير على خطاه فى كسب العظة والعبرة من آثار هذه المدن وتخليدها ناسجاً على منوال البحترى فألف قصيدته على وزن وروى سينية البحترى وصل شوقى المسجد فإذا هو تائه فى غابه من أشجار المرمر وتلك هى سوارى المسجد ، مثل ألفات الوزير ابن مقلة المعروف بجودة خطة .

مرمر تسبح النواظر فيه ويطول المدى عليها فترمى
وسوار كأنها فى استواء ألفات الوزير فى عرض طرس

ويطوف شوقى بأرجاء المسجد، حتى يصل إلى المحراب، ويرى ماعليه من بديع الخطوط فيذكر بالثناء والتقـــدير بانى المسجد عبد الرحمن الداخل :

صنعة الداخل المبارك فى الغر ب وآل له مابين شمس

ويستثير عبد الرحمن الداخل إعجاب الشاعر ، فصقر قريش بطل عربى غامر بنفسه ليقيم لأسرته ملكا جديداً فى الغرب، يخفق قلب الشاعر وهو يذكر أنه الآن فى الرحاب التى أسس فيها الداخل دولة الأمويين ، والتى تضم أرضها عظامه .

فينطلق لسانه بالشعر يتغنى بأمجاد ذلك الصقر ، ويختار شوقى هذه المرة لغنائه لحناً أندلسياً معروفا ، فيعزف لنا على قيثارته موضحة برسم فى مقاطعها صورة البطل الأموى ، منذ قدومه من المشرق إلى تأسيس الدولة الأموية فى المغرب .

كنت صقرا فى صبا علما ماعلى الصقر إذا لم يرمى
أن تسل أين قبور العظما فعلى الأفواه أو فى الأنفس

فى هذا القصر العربى قضى شوقى فترات طويلة ، يطوف فى أبهائه وينتقل فى حجراته ، ويرى القسم الذى أضافه الاسبان إلى القصر فشوهوا بذلك جماله الخالص فبدأ خليطا من الطرازين الشرقى والغربى كان شوقى يبحث عن الملك الشاعر المعتمد بن عباد وزوجته الشاعرة الجميلة وابنتها بثينة وجدتها العبادية ، ولكنه لن يجد احدا منهم فى القصر ، فقد داهم يوسف بن تاشفين الملك العبادى ونفى الأسرة المالكة كلها عن اشبيليه إلى أغمات غير أن بحث شوقى عن أبطال روايته وأميرة الأندلس لن يضيع سدى ، فأطياف هؤلاء تعبق بها أجواء القصر الخالى ، وتموج بها ظلال الحدائق العربية القلب ، وراو القصر الحزين ، وخيال شوقى قادر على أن يلتقى بهذه الأطياف ، لتتبين ملامحها من قرب ، ويتمثل من خلالها وصفه الايام الاخيرة لحكم بن عباد فى أشبيلية ، قبل غزو المرابطين لها .

يبدو أن غرناطة كانت آخر مدينة فى الاندلس تركت فى انتاج شوقى الأندلس صورة لآثارها . كانت غرناطة آخر معقل للعرب فى أسبانيا وذلك بتسليم ابى عبد الله الصغير اخر ملوك بنى — الأحمر ، إلى فرديناند وايزابيلا مفاتيحها خرج العرب منها وخلفوا فى هذه المدينة أضخم أثر عربى تزهو اليوم به الأندلس ، تهفوا إليه قلوب السياح من كل فى الأرض ليروا إحدى معجزات الإنسانية ، ومفخرة الحضارة العربية والفن الإسلامى فى أسبانيا إنه قصر الحمراء حصن غرناطة ودار بنى الأحمر ، ولا يزال إلى اليوم ، كما تركه بهائه الامجاد ، أعجوبة تسحر الألباب ، ويفتن به الزائرون يقع قصر الحمراء فوق اكام عاليه تطل على غرناطة تحيط به جنات وارفة الظلال من حدائق القصر ، ويشرف على هذه الآكام جبل سيرا نفادا والثلوح تتألق عليه تألق الفضة ولا تفارق قمه فى الصيف ولا فى الشتاء فهو شيب مرمرى ، كما بد العينى شوقى :

جلل الثلج دونها رأس (شيرى)
فبدا منه فى عصائب برس

مرمدى شبيه ، ولم أرشيبا قبـله يرجو البقاء ويئس

وقبل أن يصل شوقى إلى الحمراء لابد له من صعود ذلك الطريق المتحدر المظلل بأغصان الشجر الكثيف ، وإذا كانت السنون الخمسون يؤذيها مثل هـذه الصعود مشيا ، فعلى الشاعر أن يتمهل فى السير ، وأن يقف قليلا عند الباب الكبير المسمى بباب العدل ليرى على قوسة تلك اليد الهائلة المنقوشة بأصابعها الخمس ، انها فيما يقال — رمز للعقيدة الاسلامية بأركانها الخمسة .

قصر الحمراء :

ولا نحسب شوقى الآن بحاجة إلى الدليل ، فالشاعر العربى الآن يطوف فى محراب قصر بناه أجداده ، ووضعوا فيه شيئا من روحهم ، وملأوا جدرانه بالآيات والأشعار العربية ، ومن البداهة ألا يحتاج الانسان فى بيته إلى دليل .

طاف شوقى فى غرف الحمراء وحجراته الرحبة الواسعة وكلها آية فى الروعة والجمال ، زاهية بالنقوش ، الدقيقة ووقف طويلا فى قاعة الشعراء وهى أجل غرف الحمراء وفيها ملوك بنى الاحمر يقابلون رسل ملوك الافرنج وشعراءهم وتحوى جدرانها أبدع النقوش والخطوط ، وهى تطل على حى البيازين من غرناطة من جهاتها الثلاث ، والجهة الواقعة تفضى إلى قاعة البركة ومنها إلى مساحة الريحان ، تحيط به سبعة من الاسود المرمرية وتولين ظهورها ، والماء يتدفق من أفواهها عذبا صافيا فتلقط شاعرية شوقى هذه الصورة .

مرمر قامت الاسد عليـه كلة الظفر لينـات المجس
تنثر الماء فى الحياض جمانـا تترى على ترائب ملس

وعندما يصل شوقى إلى فندق (واشنطون ايرفنج) حيث يقيم مع أسرته فى قلب الغابة المحيطة بالحمراء ، يقف طويلا أمام الصورة الزيتية المعلقة فى بهو الفندق ، والتى تمثل الملك العربى ابا عبد الله آخـــر ملوك غرناطة ، وهو يسلم فى خضوع مفاتيح المدينة إلى الملوك الكاثوليك وتثور فى نفس شوقى العربى المسلم حسرات وآلام وهو يرى النهاية المحزنة لقصة المجد العربى فى الاندلس ، فيحمل حملة عنيفة على ذلة ابن عبد الله الصغير واستسلامه .

ومفاتيحها تقاليـــد ملك باعها الوارث المضيع ببخس
رب بان لهـادم وجموع لمشت ومحسن لمخـس

ومن الروح الاندلسية عند شوقى قصيدته القومية التى عارض فيها ابن زيدون .

بين شوقى وابن زيدون

ابن زيدون هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون القرطبى[1] ولد بقرطبة ونشأ بها ، وكان أبوه من وجوه الفقهاء وكبار القضاة ، وكانت قرطبة فى ذلك الوقت تزخر بالعلم والأدب ، فدرس على أبيه وعلى علماء قرطبة وأدبائها الأدب وحفظ كثيرا من الشعر والأخبار والسير والأمثال والحكم وسائل اللغة ومباحثها ، وأخذ يعالج فنون الأدب حتى برع فيها ، فتم فضله ، وذاع صيته ، وارتفعت مكانته .

واتصل بابن جهور أحد ملوك الطوائف ، فاتخذه كاتبا ومشيرا ، ثم أخذ يترقى فى دولة ابن جهور حتى قلده منصب الوزارة واعتمد عليه فى السفارات بينه وبين ملوك الاندلس فلقب بذى الوزارتين وصار يعمل على تحسين الصلات بينهم وبينه بذكائه ودهائه ، إلى أن دبت عقارب السعابه بينهما فنقم عليه ابن جهور وسجنه ولجأ إلى المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية سنة ٤٤٨ هـ ، فاستخلصه لنفسه ، وعول فى أموره عليه ، ثم وزر لابنه المعتمد وقضى فى اشبيلة بقية عمره .

وقد ابتلى ابن زيدون وهو فى قرطبة بحب ولادة بنت المستكفى أحد خلفاء بنى أمية ، وكانت مشهورة بالجمال والأدب ، شاعرة سافرة ، تساجل الشعراء وتجادل العلماء ، وكانت دارها ناديا من أندية قرطبة ، يغشاها الامراء والوزراء والأدباء والقادة . ومن هؤلاء ابن زيدون وكانت فيه خفة روح دعابة ويراعة أدب ، فسبق المتنافسين إلى قلب ولادة فاحلته وبادلته هى هذا الحب ، فأذكى هذا الفوز نار الحسد فى قلوب منافسيه

يراجع فى هذا :

(١) الموازنة بين الشعراء : دكتور زكى مبارك ١٢

ومزاحميه فسعوا فى أفساد ذات بينهما ، واشتهر فيهم الوزير ابن عبدوس فتنزلف إلى ولاة فى ساعة من ساعات مللها من ابن زيدون وظفر برضاها ثم عاد الحب إلى مجراه الأول فرحبت به ، فكتب ابن زيدون إلى ابن زيدون إلى ابن عبدوس رسالة هزلية على لسان ولادة أشبعه فيها تقريعا وسخرية ، ضمنها كثيراً من الملح فى الأدب والتاريخ(١) .

وقصيدته الحاوية لمعـــانى حبه ، المسجلة لشتى آلامه ، الممثلة لآماله فى الحب وأحلامه التى هى فى شعر الأندلس كله نجم يتألق ، وعلم يخفق ، فهى قوله يخاطب ولادة ومطلعها :

أضحى التنائى بديلا من تدانينـــا
ونـاب عن طيب لقيانا تجافينا

وهى أعظم قصائد ابن زيدون حظاً من الذيوع والشهرة وبعد الصيت ، ولو لم يكن له سواها لأغنته بهذا الدوى الذى أحدثته فى البيئات الأدبية ، وتلك المدرسة التى خلقها من الشعراء الكثيرين فى كل عصر ، الذين أجبوا بها وعارضوها قال الصفدى : « ومن ذلك قصيدته النونية التى ســـارت فى البلاد وطارت فى العباد ، وقد اشتهرت حتى صارت محدودة ، فيقال أنه ما حفظها أحد إلا مات غريباً . . وعارضها الناس فى حياته وبعد مماته ولم يقاربوها(٢) .

ومن الذين عارضوها أحمد شوقى وهو شاعر بينه وبين ابن زيدون تشابه فى النفى والمجـد والحب إلا أن الحب عند ابن زيدون حب لولادة والحب عند شوقى هو حب مصر وكلاهما جمعة الحب فيمن أحب ، وكلاهما

---

(١) ابن زيدون : د. حسن جاد حسن.

(٢) أنظر شرحه لرسالة ابن زيدون ٤٠

يصور فى قصيدته عن شعور صادق ، وألم دفين ،وكلاهما يصور فيها لوعة البين ، وذل الحرمان ، ووحشة الغربة ، والحنين لمن أحب وذكرى أيام الأندلس والصفاء .

وسأبدأ بعرض النونية :

بدأها الشاعر بذكر الفراق والبين بعد طيب الوصل والتلاق ثم يصف ما ألم به من هذا التجافى.

أضحى التنائى بديلا من تدانينا
ونأب عن طيب لقيانا تجافينا
ألا وقد حان صبح البين صبحنا
حين فقام بنـــا للحين ناعينا

وأخذ يصف شوقه المشتعل ودموعه الحارة .

بنتم وبنـــا فما ابتلت جوانحنا
شوقا اليكم ولا جفت مآقينـــا
تكاد حين تناجيكم ضمـــائرنا
يقضى علينا الأسى لولانا تأسينا

ثم يمضى الشاعر ليؤكد لها العهد ، ويقسم على الوفاء ، حيث يقول :

لا تحسبوا نأيكم عنـــا يغيرنا
إذ طالما غير النأى المحبيـــنا

وتعاود الذكرى وتتملكه الصبوة ، فيفزع إلى البرق والنسيم يبثها شكواه ولوعته ، ويسألها ما شاء من السؤال :

يا سارى البرق غاد القصر فاسق به
من كان صرف الهوى والود يسقينا

ويا نسيم السبا بلغ تحيتنـــا
من لو على البعد حياً كان يحيينا

وكأنى بالشاعر يحاول أن يعزى نفسه ، بأن يستعرض أوصافها ، كما يتعزى الوله بصورة محبوبته .

ربيب ملك كأن الله أنشأه
مسكا وقدر إنشاء الورى طينـا

وينتقل الشاعر بين هذه الذكريات، ويؤكد لها الشاعر أنه محافظ على العهد حافظ للود ، وأن الراح لا يمكن أن تلهيه عن ذكراك ، ولم ترحه من هذه اللوعة ويتوسل إليها بالحفاظ على العهد :

أما هواك ، فلم تعدل بمنهلة شربا وإن كان يروينا فيظمينا
لم نجب أفق جمال أنت كوكبه سالين عنه ولم نهجره قالينا
ولا اختياراً تجنبناه عن كثب لكن عدتنا على كره عواديا
لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا
سيمى أرتياح ولا الأوتار تلهينا

شوقى :

شاعرنا يحج إلى الأندلس وينزل ضيفا على ابن زيدون ويذكر مانزل به من بلاء ومحنة ونفى وتشريد ، فيصرح فى هذا الأفق الذى طالما صدح فيه ابن زيدون ، ويذكر قصيدته النونية ، فينظم على نهجها معارضا إياها بنونيته يقول :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
ماذا تقص علينا غـــير أن يدا
قصت جناحك جالت فى حواشينا

وينتقل شوقى من خطاب الطائر إلى بكاء الأندلس والحنين إلى مصر، فقال :

واها لنا نازحى أيك بأندلس وإن حللنا رفيقا من روابينا
رسم وقفنا على رسم الوفاء له نجيش بالدمع والإجلال يثنينا

وشوقى حريص على المعانى الشعرية ، فهو ينتقل فى الأندلس من حرم إلى حرم وهو يصور حنينه إلى مصر :

لكن مصر وأن أعضت على معة
عين من الخلد بالكافور تسقينا

ثم يصور زمان الصفو وليالى الأنس ، وعهد المسرة ، ويستطرد من ذلك إلى الفخر بمصر والمصريين بعد أن يصف نيلها وأهرامها ورمالها وكنوزها :

لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة والبر نار وغى والبحر غسلينا

يمكننا بعد عرض القصيدتين استخراج الأبيات المتناظرة فى معانيها أو تصويرها .

تكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى لولا تأسينا

ولكن شوقياً يصون هو أحبابه عن هذه المناجاة ويغار منها فيفوق صاحبه :

يا من نغار عليهم من ضمائرنا
من كان صرف الهوى والود يسقينا

وهذا شعر جميل ، ولكن شوقياً يأخذ المعنى ويقلبه على وجوه كثيرة، وينتزع منه صوراً شتى .

وقال ابن زيدون :

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لو على البعد حيا كان يحيينا

عارضة شوقى :

ويا معطرة الوادى سرت سحراً
فطاب كل طروح من مراميا

أن ابن زيدون لم يزد على ترديد ماقاله مئات الشعراء « يانسيم الصبا ».

أما شوقى فأخذ يوشى المعنى توشية بارعة ويفتن فيه افتتانا يدل على قوة الشاعرية وبراعة الخيال ، فوصف النسمة بأنها معطرة الوادى ، وأنها سارت فى السحر فطاب بمسارها كل مرمى سحيق ، وأنها زكية الذيل كأنها قميص يوسف وشكر لها النعى(١) فقال :

فلو جزيتك بالأرواح غالبية
عن طيب مسراك لم تنهض جوازينا

وابن زيدون تطوف بخلده ذكرى أيام الأنس فيقول :

حالت لفقدكموا أيامنا فغدت سودا وكانت بكم بيضا لياليا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا ومربع اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا فنون الوصل دانية قطوفه فجنينا منه ماشينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

---

(١) الموازنة بين الشعراء ، زكى مبارك ٣٧٦ : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة .

عارضه شوقى فجمع بين الأسى والفخر فقال :

سقيا لعهد كأكناف الربارقة أنى ذهبنا وأعطاف الصبالينا
إذ الزمان بنا غيناء زاهية ترف أوقاتنا فيها رياحينا
الوصل صافية والعيش ناغية والسعد حاشية والدهر ما شينا
والشمس تختال فى العقبان تحسبها
بلقيس ترقل فى وشى اليمانينا

وحين تقف أمام هاتين القطعتين لتوازن بينهما ، لا نستطيع أن نحكم أيهما أجود، ذلك لأن ابن زيدون بلغ قمة الإبداع على قصر نفسه فى هذه القطعة وبخاصة فى قوله :

إذ جانب العيش طلق من تألفنا ومورد اللهو صاف من تصافينا

ويتملكنا الإعجاب من قول شوقى :

سقيا لعهد كأكناف الربا رقة أتى ذهبنا وأعطاف الصبالينا
إذ الزمان بنا غيناء زاهية ترف أوقاتنا فيها رياحينا

ويشترك شوقى وابن زيدون فى التفجع ، يقول ابن زيدون:

ياجنة الخلد أبدلنا بسلسلها والكوثر العذب زقوماً وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
والدهر قد غض من أجفان واشينا

وعارضه شوقى :

ويابغى كأن الحشر آخره تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا
فطوى دجاة بجرج من فراقكمو
يكاد فى غلس الأسحار يطوينا

من الأشياء التى أهتاز بها شوقى :

حسن المطلع فهو أروع من مطلع ابن زيدون .

وكان شوقى أعلى نفسا من ابن زيدون .

وانفرد بتوليد المعانى والإفتتان فى التصوير ، مع الفخر بمصر وبهذا يكون شوقى قد استطاع أن يغزو ابن زيدون فى وطنه .

ومع ذلك لا ننسى أن ابن زيدون فتح الباب لشوقى وله فضيلة السبق .

المصادر

الشوقيات

المراجع :

١ — شوقى شاعر العصر الحديث ، د. شوقى ضيف .
٢ — فى الأدب الحديث أول وثان ، الأستاذ : عمر الدسوقى .
٣ — حياة شوقى ، الأستاذ : أحمد محفوظ .
٤ — أحمد شوقى شاعر الوطنية ، الأستاذ : أحمد زكى عبد الحليم .
٥ — وطنية شوقى ، د. أحمد الحوفى .
٦ — شعراء الوطنية ، الأستاذ : عبد الرحمن الرافعى .
٧ — أعلام الفكر الإسلامى فى العصر الحديث، الأستاذ: أحمد تيمور
٨ — أبى شوقى ، الأستاذ : حسين شوقى .
٩ — حافظ وشوقى ، د . طه حسين .
١٠ — شعراء مصر وبيئاتهم ، الأستاذ : عباس العقاد .
١١ — الدين والأخلاق فى شعر شوقى ، الإستاذ: على النجدى ناصف
١٢ — أندلسيات ، د. صالح الأشتر .
١٣ — أسبانيا كما رآها السياح المسلمون .
١٤ — فصول فى النقد ، الأستاذ : عباس العقاد .
١٥ — الديوان ، الأستاذ : عباس العقاد .
١٦ — نشأة النقد الأدبى الحديث فى مصر، الأستاذ: عز الدين الأمين.
١٧ — الشعر المعاصر على ضوء النقد الأدبى الحديث
الأستاذ : مصطفى عبد اللطيف السحرتى .
١٨ — ابن زيدون ، د. حسن جاد حسن .

١٩ — الموازنة بين الشعراء ، د. زكى مبارك .
٢٠ — آراء واتجاهات فى النقد ، د. محمد نايل أحمد .
٢١ — فن الشعر ، د. محمد مندور .
٢٢ — نظرات فى أدبنا المعاصر ، د. زكى المحاسنى .
٢٣ — المسرح ، د. محمد مندور .
٢٤ — مسرحيات شوقى ، د . محمد مندور .
٢٥ — رساله فى الأدب الحديث خطبة ، د. عفيفى عبد الفتاح .
بمكتبة كلية اللغة العربية ١١٥
٢٦ — مجلة : المجلة عدد ديسمبر سنة ١٩٦٨
٢٧ — الهلال عدد خاص عن شوقى .